مـرو بـرجـــر
Morroe Berger

مرو برجر عالم اجتماع أمريكى يهودى ، عاش في المنطقة العربية فترة غير قصيرة ، وتعرف على أحوالها من قرب ، ودرس أوضاعها دراسة دقيقة، وقد اخترنا له أشهر كتبه «العالم العربى اليوم» The Arab World Today .

وقد ألف كتابه عام ١٩٦٢ م ، وأعيد طبع الكتاب عدة مرات . والنسخة التى رجعنا إليها فى حديثنا عنه هى طبعة سنة ١٩٦٤ الصادرة عن :

Anchor Books : Doubleday & Company , inc .

Garden City . New York.

وتقع فى (٤٦٣) صفحة من القطع المتوسط عدا المقدمة فى أربع صفحات، وتنتهى بقائمة للمصادر تقع في ١٦ صفحة ، تشتمل علي كتب ومقالات وأبحاث وإحصائيات انجليزية وعربية ، رجع إليها المؤلف لتأليف كتابه ، وفهرس للكلمات ذات الأهمية الخاصة الواردة فى الكتاب ، وأرقام الصفحات التى وردت فيها ، يقع فى ١١ صفحة .

وقد ترجم الكتاب بعد صدوره فى طبعته الأولى فى بيروت ، ولكن النص الذى رجعنا إليه هنا هو النص الانجليزى فى طبعته الصادرة عام ١٩٦٤ .

* * *

هذا كتاب من نوع آخر غير كتب المستشرقين المعهودة ، وإن شاركها في الغمز واللمز والتجريح، الذى لا تكاد تخلو منه دراسة من دراسات المستشرقين، ولكنه يضيف بعداً آخر ، يمثل اتجاها جديدا فى كتابات المستشرقين ، وهو اتجاه جدير بالاهتمام ، وجدير بالتنويه .

الكتاب دراسة دقيقة عميقة لمنطقة معينة من العالم العربي الإسلامى ، هى مصر وسوريا والعراق ولبنان والأردن . ولا أحسبنى مغاليا إذا قلت إنها أدق

دراسة عن هذه المنطقة ظهرت حتى اليوم (فيما قرأت أنا على الأقل ، ولا أزعم أننى قرأت كل ما يكتب!) دراسة اجتماعية تشمل العادات والتقاليد والمعتقدات والتاريخ ، والأوضاع الاقتصادية والأوضاع السياسية والأوضاع الفكرية ، والتيارات التى تتجاذب المنطقة ، وتأثيرها فى أحوال ساكنيها ؛ ومدى ما أحدثته من التغيير فى الفترة الأخيرة ، وبصفة خاصة فى النصف الأول من القرن العشرين .

وقد أخرج المؤلف كتابه فى نهاية عام ١٩٦٢ ميلادية ، ومن ثم فدراسته للأحداث فى المنطقة تقف عند هذا التاريخ ، أو قبله بقليل ، ولكن تصوراته وتوقعاته لا تقف عند تلك الأحداث ، بل تتخطاها إلى المستقبل كما يراه المؤلف ، أو قل : كما يتمنى أن يراه !

والمؤلف لا يعتبر نفسه مستشرقا بالمعنى الاصطلاحى المعروف ، إنما يقدم نفسه – وتتحدث عنه الصحافة – على أنه « عالم اجتماعى » . ولكن اهتمامه بمنطقة الشرق العربى الإسلامى لا يقل عن اهتمام المستشرقين ، كما أن تمحور دراسته للمنطقة حول الإسلام ، وتأثيره فى أهل المنطقة ، وما حدث فى المنطقة من التغيرات التى تدور حول هذا المحور ، هو داته شأن المستشرقين فيما يكتبون عن الإسلام ، وبصفة خاصة حين يكتبون عن الإسلام فى التاريخ المعاصر (١) ، لذلك نرى وضعه فى عداد المستشرقين أمرا واردا – وإن كان تخصصه علم الاجتماع – خاصة وأنه يقرأ العربية ، ويطلع على كثير مما يكتب بها من كتب وصحف وأبحاث ، فوق أنه عاش في المنطقة التى يكتب عنها زمنا ليس بالقصير .

* * *

تشمل الدراسة كما قلنا هذه الأقطار الخمسة : مصر وسوريا والعراق ولبنان والأردن ، مع تركيز واضح علي مصر بالذات .

---

(١) انظر علي سبيل المثال كتاب « ونفرد كانتول سميث » الذى عرضناه من قبل .

وحجة المؤلف فى اختيار هذه المنطقة دون غيرها أنها قلب العالم العربى ، وأنها أكثر الدول تقدما فى المنطقة . فأما أنها قلب العالم العربى فهذا صحيح . وأما أنها – كلها – أكثر الدول تقدما فى المنطقة فقولة لا تنطبق على الأردن ، على الأقل فى الفترة التى تشملها الدراسة ، بصرف النظر عن المستقبل . والمؤلف نفسه لا ينكر هذه الحقيقة ، بل يقررها صراحة بقوله إن اقتصاديات الأردن ضعيفة ، وإنها تعتمد على المساعدات الخارجية من بريطانيا وأمريكا ، وإنها لا تملك موارد تساعدها علي رفع دخلها ، أو إنشاء صناعة ثقيلة فيها ، ولكنه يبرر وضعها مع أخواتها من الدول التى اختارها للدراسة بأنها – كما يقول فى ص ٧– « تتحرك فى نفس اتجاه الدول الأخرى ، وربما تُستَوْعَب فى واحدة منها أو أكثر فى وقت قريب » !! وهى إشارة ذات مغزى ، ينبغى أن تلفت انتباه القارئ منذ بداية الكتاب !

والواقع أن هذه الدول الخمس المختارة للدراسة لها علاقة بأمر آخر ، مختلف تماما عن المبرر الذى برر به المؤلف اختيارها بذاتها من بين دول العالم العربى ، يتضح لك إذا دققت النظر فى الخريطة . فهذه بالذات هى الدول المحيطة بإسرائيل، وقد اختارها المؤلف – اليهودى – لأمر فى نفسه، سيتضح لنا أثناء الدراسة ، بصرف النظر عن كونها متقدمة فى ذاتها أو غير متقدمة . إنما موقعها الجغرافى – حول إسرائيل – هو الذى حدد – فى ذهن المؤلف – اختيارها للدراسة. ومن هنا كانت الأردن داخلة فيها – بالضرورة – على الرغم من اعترافه بوجود فروق كثيرة وكبيرة بينها وبين الدول الأربع الأخرى فى المجموعة .

سبب الاختيار الأول للدراسة إذن ، وسبب اهتمام المؤلف الخاص بها هو كونها الدول التى تحيط بإسرائيل من كل جانب .

وإخفاء هذا السبب ، والتذرع بغيره ، هو الخبيئة الأولى من خبائث المؤلف فى هذا الكتاب الخطير !

فإذا دققت النظر فى الخريطة أكثر فسيتضح لك أن هذه المنطقة بالذات هى

إسرائيل الكبرى ، من النيل إلي الفرات » التى يحلم بها اليهود ، ويقولون إن هدفهم هو تحقيقها قبل نهاية هذا القرن العشرين !

وإخفاء السبب – مرة أخرى – فى اختيار هذه المنطقة بالذات . هو الخبيثة الثانية من خبائث المؤلف في الكتاب ، وإن كانت قد خانته سقطة قلم كاشفة ، تكشف عما استتر في الضمير . حين حدد المنطقة فى الصفحة الأولى من المقدمة بانها من « مصر إلي العراق » ، أى من « النيل إلى الفرات » ، وإن كان قد تحاشى أن يذكر العبارة الصريحة – « من النيل إلى الفرات » – لأنها مشهورة معلنة فى الدعاية اليهودية ، بحيث إن مجرد ذكرها على لسان مؤلف يهودى قد ينبه القارئ لحقيقة المراد !

* * *

المنطقة التى تشملها الدراسة الدقيقة العميقة الشاملة إذن هى تلك التى تريد أن تقيم إسرائيل فيها دولتها : من « مصر إلي العراق » ، أو من « النيل إلى الفرات » ! فما محور البحث فى هذه الدراسة ؟

فأما في ظاهر الأمر فهى دراسة « بريئة » غاية البراءة ! دراسة تضع الناس والأشياء والأوضاع تحت المجهر ، وتصف وصفا دقيقا أحوال الناس فى المنطقة ، مع تركيز شديد على عملية « التغير الاجتماعى » الذى يجرى فى المنطقة : كيف يجرى ؟ من خلال ماذا ؟ ما مدى التغير الذى أحدثه بالفعل ؟ ما المدى المتوقع للتغيير على المدى الطويل . .

ولكن دعنا نسأل المؤلف : لماذا تهتم بهذه المنطقة بالذات كل هذا الاهتمام، ولا هى وطنك ، فأنت أمريكى ، ولا المفروض أن يكون لك بها علاقة أكثر من غيرها من بلاد الأرض ؟!

آلبحث العلمى ؟!

فهل اجتذبتك بلادك الأصلية لتدرس التغيرات الاجتماعية الواقعة فيها ، والتي توشك أن تؤدى بحضارتك – الغربية – إلى الانهيار نتيجة التفسخ الخلقى

الذريع ، والحرية الفردية الزائدة عن الحد ، التى تهدد بتفكيك المجتمع ، والمادية المفرطة التى تهدد بإتلاف الفطرة الإنسانية ذاتها ، والهبوط بها إلى درك أسفل من الحيوان ﴿ أُولَئِكَ كَالأَنْعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] . على الرغم من كل التقدم العلمى والمادى والتقنى الذى لا مثيل له فى التاريخ ؟

فإذا كان البحث العلمى هو الدافع للدراسة ، فأيهما أولى بالاهتمام : بلد الإنسان ، الذى نشأ فيه ، والذى يرتبط مصيره بمصيره ؟ أم بلاد بعيدة عنه بعد المشرق عن المغرب ؟

وتعال نسأل المؤلف سؤالا آخر ، « بريئا » كبراءته !

أى العناصر تبتهج لها فى حديثك عن التغير الاجتماعى ، ويتهلل لها وجهك ، وينبض لها قلمك بحماسة ظاهرة ، وأيها يتقبض لها وجهك ، ويضيق بها صدرك ، وتبدى التبرم بها ، وتعلن عن رغبتك فى زوالها ؟!

إن المحور الذى يدور عليه البحث كله هو الإسلام ، أين هو قوى ؟ وما سرقوته حيث هو قوى ؟ وأين هو ضعيف ؟ وما التغيرات التى أدت إلي ضعفه حيث ضعف ؟ وما مستقبل هذه التغيرات : أهو مزيد من التمكن والانتشار ، يؤدى بالضرورة – في نظر المؤلف – إلى ضعف الإسلام ؟ أم انكماش يخشى معه من عودة الإسلام إلي القوة !

ذلك هو جوهر الكتاب ، الذي يستره المؤلف بمئات من الصفحات من « البحث العلمى » ، البرئ المظهر ، وتلك هي الخبيثة الكبرى من خبائث المؤلف ، التى ربما تغيب عن فطنة القارئ الذى قد تبهره دقة المعلومات ، وسعة الاطلاع ، وعمق الفكرة ، والجهد المبذول فى البحث ، فلا يلتفت إلى الهدف من وراء الجهد المبذول .

* * *

واضح لمن ينعم النظر أن الكتاب ينطلق من « قلب » إسرائيل ، وتتجاوب صيحاته – أو مباحثه – مع نبضات قلب إسرائيل . فماذا تخشى إسرائيل غير

الإسلام ، والجهاد الإسلامى ، وماذا تتمنى إسرائيل أشد من زوال هذا الدين ، أو فى القليل ضعفه إلي الحد الذى لا يعود يسيطر على القلوب أو يحرك النفوس ، وإن بقى « هناك » فى ركن معزول ، أثرا من آثار الماضى ، ضعيف المفعول ، أو عديم المفعول ؟!

فإذا تبين ذلك فقد تبينت فحوى الكتاب من خلال صفحاته التى تربو على الأربعمائة والثلاثين ، وفصوله التى تبلغ أحد عشر فصلا سوى المقدمة ، وتبلغ عناوينها الفرعية ثمانية وخمسين عنوانا تشمل أكثر مجالات الحياة ، وتفاصيل دقيقة فى كل مجال . .

والخلاصة المستفادة من الكتاب – كما يعرضه المؤلف – أن الإسلام ما زال قويا فى البادية لأنه فى أصله دين بدوى (!) نشأ فى البادية ، وترعرع فيها ، وحسّم عاداتها وتقاليدها ، فهو أشد التصاقا بها ! وما زال قويا فى الريف لأنه يتسع لخرافات الريفيين أو في القليل لا يتعارض معها (!) كما أنه يتمشى مع الأخلاقيات التى تنشئها البيئة الريفية (!) ولكنه ضعيف بين سكان المدينة المصنعة المزدحمة بالسكان ، لأن التصنيع والتحديث والمعاصرة وانتشار التعليم وارتفاع مستوى المعيشة وانتشار وسائل الإعلام ، كل ذلك من شأنه أن يضعف الدين ، وحتى إن لم يقض عليه تماما فإنه يحجمه فى ركن منعزل عن دوامة الحياة الموارة .

ثم إن الدراسة تقول إنه حتى الرّيف والبادية قد بدآ يتأثران « بالحضارة » نتيجة انتشار التصنيع وبتأثير وسائل الإعلام ، فالاتجاه العام فى الريف والبادية والمدينة جميعا أن الإسلام فى طريقه إلي مزيد من الضعف والتحجم والانعزال ، فيا فرحة المؤلف بما يرى حوله من الأحوال !

وإذا كانت هذه هى الخلاصة فلنأخذ فى شئ من التفصيل .

* * *

سبق أن أشرنا إلي وجود عبارة كاشفة فى أول صفحة من التمهيد الوارد فى

أول الكتاب ، هى قول المؤلف « من مصر إلي العراق » أي « من النيل إلى الفرات » . وهى عبارة لا ترد اعتباطا . ولا ينبغى للقارئ أن يهمل دلالتها ، خاصة حين يعلم أن المؤلف يهودى – وإن كان أمريكيا ! – فالوطن الذي يشغل باله ، ويعنى بدراسته ، ويبذل الجهد العظيم فى دراسته هو « إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات » !

كما أن فى الصفحة الثانية من التمهيد عبارة كاشفة أخرى هى قول المؤلف « إننا » يعنى نفسه ومن على شاكلته « ينبغى أن نزداد معرفة بهؤلاء الناس (أى سكان المنطقة التى اختارها للدراسة) الذين تداخل تاريخهم وثقافتهم بتاريخنا وثقافتنا تداخلا كبيرا ، والذين بدأوا يتحركون مرة أخرى » ! فالذى يدفع المؤلف إلى دراستهم والعناية بمعرفة أحوالهم هو أنهم بدأوا يتحركون مرة أخرى ! وهذا يكشف – من أول الكتاب – عن مدى خوف الصليبية الصهيونية من تحرك العالم الإسلامى ، وتمنيهم أن لو ظل خامدا لا يتحرك ، كما منوا أنفسهم من قبل ، حين رأوا غفوة العالم الإسلامى في القرون الأخيرة ، فظنوا أن فرصتهم قد واتت فى القضاء الأخير على الإسلام ، فإذا به يفاجئهم بالتحرك مرة أخرى ، فأصابهم من القلق بسبب هذا التحرك ما أصابهم ، وتجمعوا – بقضهم وقضيضهم – ليخمدوا أنفاسه إذا استطاعوا !

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٠]

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾

[البقرة:١٢٧]

* * *

فى صفحة (١١) يقول : إن خواص الإسلام نشأت من خواص المدينة والصحراء العربيتين فى القرن السابع الميلادى . . فيمكر مكرتين « استشراقيتين » فى آن واحد : الأولى أن الإسلام هو دين العرب أساسا (وإن انتشر خارج النطاق العربى) والثانية أنه دين القرن السابع الميلادى ، أى أنه لا يصلح للقرن الحاضر !

وفى صفحة (١٣) مكرة «استشراقية» أخرى : أن كثيرا من مفكرى الإسلام- وإن كتبوا بالعربية - لم يكونوا عربا (وهذا صحيح ، وهو يدحض الفكرة القائلة بأن الإسلام دين العرب خاصة، التى يتشبث بها المؤلف ، ويؤكد أنه دين الإنسانية من عرب وغير عرب) ولكن الجديد فى هذه المكرة الاستشراقية أنه يقول إن بعض مفكرى الإسلام قد يكونون يهودا أو نصارى غير معلنين (أى متسترين بالإسلام!!) وهي مكرة غبية ! فإن وجود يهود ونصارى معلنين غير مستترين فى العالم الإسلامى ، وغير مضطهدين بسبب دينهم (كما يعترف هو وغيره من المستشرقين [١]) ينفى الغمزة التى أراد أن يغمز بها الإسلام ، وهى الإيحاء بأن بعض اليهود والنصارى قد اضطروا أن يخفوا دينهم ويتظاهروا بالإسلام ، بل يؤلفوا كتبا فى الإسلام ، خوفا من الاضطهاد !! إلا أن يكون قد أراد أن بعض اليهود والنصارى قد تظاهروا بالإسلام ليخربوا فيه من الداخل مثل عبد الله بن سبأ ، ولا نظنه يبلغ من الأمانة إلي حد أن يعترف بهذا الأمر ! وتبقى دعواه على أية حال بغير دليل ، فهو لم يذكر دليلا واحدا على ما يقول !

* * *

فى صفحتى (١٥ ، ١٦) يشير إلي حقيقة الشمول فى الإسلام ، التى لا تفصل بين العقيدة والشريعة ، ولا بين العقيدة والسياسة والاقتصاد والاجتماع . ولكنه يعتبر ذلك - بطريقة ملتوية - تخلفا فى جانب الإسلام ، لأن الغرب - الذى هو عنده مقياس التقدم فى كل شئ - قد فك الارتباط بين هذه جميعا .

ونحن من جانبنا نقول إن تفكيك الارتباط بين هذه الأمور فى الغرب هو سبب النكسة الكبرى التى أصابت الغرب ، وأصابت البشرية كلها فى ظل «الحضارة» الغربية .

* * *

---

(١) انظر بصفة خاصة كتاب (ت . و . آرنولد : الدعوة إلي الإسلام) .

فى صفحة (٢٠) يردد سخافات المستشرقين من أن الرسول ﷺ قد نقل عن اليهودية والنصرانية ، ولكنه يزيد عليها أن التعديلات التى أحدثها محمد (ﷺ) علي ما أخذه من اليهودية والنصرانية هى التى أعطت الإسلام طابعه العربى !

وهى سخافات لا تستحق الوقوف عندها ولا التصدى للرد عليها ، فلو فرضنا جدلا أن محمدا ﷺ هو الذى أنزل القرآن وصنع الإسلام (ونستغفر الله من الكفر) فكيف يكون الذى يقول ﴿ ... **اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ ناقلا عمن يقول إن عزيرا ابن الله أو إن عيسى ابن الله ؟ أفلا يستحى أولئك المستشرقون من سخافاتهم ؟!

وإذا كان هذا هو « التعديل » الذي أدخله محمد ﷺ على اليهودية والنصرانية ، فهل كانت هذه عقيدة العرب أخذها الرسول ﷺ من قومه العرب وأدخلها فى الإسلام ؟ وهل كان العرب موحدين قبل أن يتنزل عليهم الإسلام من عند رب العالمين أم كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله ؟ تعالي الله عما يقولون علوا كبيرا ... إن عقيدة التوحيد الخالص قد نزلت من عند رب العالمين فى وقت لم يكن فى الأرض كلها من ينادى بها ، لا اليهود ولا النصارى ولا العرب المشركون . أما الشريعة ودعاواه بشأنها فستأتى الإشارة إليها بعد قليل.

* * *

فى صفحتى (٢٤ – ٢٥) محاولات لئيمة للقول بأن بساطة العقيدة الإسلامية ووضوحها تجعل الوثنيين يستريحون إليها فيعتنقون الإسلام !

وهى مقالة سخيفة من جانبين . الجانب الأول أو المغالطة الأولى أن العرب الوثنيين كانوا أشد الناس إباء لهذه العقيدة البسيطة الواضحة ، وقالوا : ﴿ **أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** ﴾ [ص : ٥]. وقالوا : ﴿ **هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ** ﴾ [سبأ : ٧ ، ٨] .

والمغالطة الثانية أن ملايين من النصارى قد دخلوا الإسلام فى مصر والشام وشرق أوربا وغربها فى قرون الإسلام الأولى بغير إكراه كما يشهد وفرد كانتول سميث في كتابه « الإسلام فى التاريخ المعاصر » وكما يشهد أرنولد في كتاب الدعوة إلي الإسلام » وكثير غيرهما من المؤرخين الأوربيين والمستشرقين ، بل نرى اليوم – في واقعنا المعاصر – ألوفا من النصارى في غرب أوربا وأمريكا يدخلون الإسلام في كل عام ، من أصحاب « العلم » و « الفكر » و « الحضارة » و « التقدم » ، فهل الذي يدعو أولئك إلى الدخول فى الإسلام هو ما فيه من الحق ؟ أم بساطته التى توافق السذج البدائيين ؟!

ألا يستحون ؟!

* * *

فى صفحة (٢٥) يدعى أن الشريعة في الإسلام توجيهات خلقية أكثر منها تشريعات ! وأن العقوبة على مخالفتها تأتى ثانوية فى اعتبار الإسلام ! وتقوم بها « الدولة » التى لم تنشأ إلا فى وقت متأخر !

ثلاث مكرات استشراقية فى عبارة واحدة !

الأولى قلب المزية إلي عيب ! فإن من المزايا العظمى لهذا الدين أنه دين أخلاقى ، وأن الأخلاق عنصر أصيل فيه ، عميق فى كيانه . فمنذ اللحظة الأولى فى مكة كان القرآن يتنزل على الرسول ﷺ ليبين العقيدة الصحيحة – عقيدة التوحيد ممثلة فى « لا إله إلا الله » – وليؤكد فى الوقت ذاته الأخلاق التى يجب أن تصاحب هذه العقيدة وتلازمها . وكل السور المكية ، وهى تركز تركيزا واضحا على « لا إله إلا الله » ، تشتمل إما على بيان لأخلاقيات لا إله إلا الله ، متفرقة أحيانا ومجتمعة أحيانا [1] ، وإما على تنديد بأخلاقيات الجاهلية المصاحبة للشرك بالله، وعدم الإيمان باليوم الآخر .

---

(١) انظر بشأن التوجيهات الأخلاقية المجتمعة أواخر سورة الفرقان ، وأوائل سورة الإسراء على سبيل المثال .

فى أول سورة أنزلت على الرسول ﷺ جاء قوله تعالى: ﴿ **كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ** ﴾ فيندد بخلق جاهلى هو الطغيان، ويبين سببه ودافعه. وهو الظن بأن الإنسان – بجهده أو بماله – قد استغنى عن الله جل جلاله، ناسيا أن ما فى يده من نعمة هى من عند الله أصلا، ثم يذكّر هذا الطاغية الذى أطغاه ما فى يده من مال أو سلطان بأن الناس سيرجعون إلى ربهم فيحاسبهم على طغيانهم. ثم تمضى السورة فتبين بعض أخلاقيات لا إله إلا الله: ﴿ **أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ...** ﴾

واستعراض السور المكية يوضح هذه الحقيقة لكل من يتدبرها، وهى التركيز على الجانب الأخلاقى مقترنا بالعقيدة فى الله الواحد، وفى عقيدة البعث والنشور، وذلك قبل أن تنزل التشريعات التى أنزلت بعد تأسيس المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية فى المدينة المنورة، لكى تتأصل تلك الأخلاقيات وتصبح جزءا أساسيا من هذا الدين، فإذا نزلت التشريعات بعد ذلك، نزلت على أساس موجود من قبل، من خشية الله وتقواه، والعمل على رضاه، فكانت أبلغ فى التأثير، وأمكن فى الأداء، مما لو كانت مجرد قوانين تفرضها الدولة بسلطانها ... أفهذه المزية الكبرى فى هذا الدين تنقلب على يد «العالم الكبير» إلى مثلبة يذكرها فى قائمة المثالب؟!

وماذا فعلت الأمم «المتقدمة» فى الغرب بقوانينها؟ كم حجم الجريمة فى بلادها؟ وكم أغنت كل وسائل السلطة – حين فصلت الدين عن الحياة – فى مكافحة الجريمة أو التقليل من أخطارها؟ سلوا إحصائياتهم ففيها الخبر اليقين!

إن الإسلام هو المنهج الربانى المنزل من عند الحكيم الخبير، الذى يعلم أن السلطة وحدها لا تكفى، وأن القانون الذى لا سند له إلا سلطة الدولة عاجز أمام نزعات الشر المستمكنة من بعض النفوس. فيجعل العقيدة – وما يصحبها من مشاعر الخشية من الله، والرغبة فى نيل رضاه – هى الأساس المكين للسلوك، ثم

يجعل الشريعة هى السلطة التى تزع من لم يزعه القرآن كما قال عثمان رضى الله عنه: « يزع الله بالسلطان مالا يزع بالقرآن » أى أن القرآن هو الوازع الأول، والسلطان يتولى تأديب من لم يزعه القرآن. وقد كان المجتمع الإسلامى نتيجة ذلك – ولفترة طويله من تاريخه – أقل المجتمعات البشرية وقوعا فى الفاحشة، وأقلها فى شرب الخمر، وأقلها فى فشوّ الجرائم ... حتى جاءت العدوى من البلاد « المتقدمة » التى فصلت الدين عن الحياة، فأصبحت الجريمة أصلا من أصول المجتمعات!

هذه واحدة ...

والثانية زعمه أن المخالفة عن أمر الشريعة جاءت أمرا ثانويا فى اعتبار الإسلام!! فعلى أى أساس يستند « العالم الكبير » فى هذه الدعوى العجيبة؟ هل تساهل الرسول ﷺ فى حدٍ من الحدود؟ ومعلومة قصة المخزومية التى سرقت فأراد قومها أن يشفّعوا فيها زيدا – حبّ رسول الله ﷺ – فغضب يومها الرسول ﷺ وقال: أتشفع فى حدٍّ من حدود الله؟ إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها!».

أرأيت كم يتجنى السادة المستشرقون على وقائع التاريخ؟!

والثالثة أن تطبيق الشريعة جاء متأخرا حين قامت الدولة!!

وهل يمكن أن تطبق الشريعة بغير سلطة تقوم على تطبيقها؟

إنما يكون السؤال: هل توانت الدولة عن تطبيق الشريعة منذ أول لحظة قامت فيها ونزل من عند الله تشريع؟! أهناك أى دليل يستند إليه العالم الكبير؟!

* * *

ثم يزعم أن الاهتمام بالتشريع (يقصد الفقه) جاء فى نهاية القرن الأول حين احتك المسلمون بحضارات راقية فأخذ منها!

ماذا يقول الإنسان حين تبلغ المغالطة إلى هذا الحد؟!

أو لم يجتهد أبو بكر رضى الله عنه فى حرب المرتدين، وهو الحدث الضخم الذى وقع فى عهده؟ هل كان أبو بكر رضى الله عنه قد احتك بالروم أو الفرس لينقل عنهما اجتهاده؟

أو لم يجتهد عمر رضى الله عنه فى قضية الأرض المفتوحة وملكيتها وفى غيرها من القضايا؟ هل كان قد احتك بالروم والفرس لينقل عنهم؟

إنما كان الاجتهاد ينمو بنمو الوقائع التى تجدّ فى حياة المسلمين، ولم تمر قضية واحدة من القضايا - قبل الاحتكاك بالحضارات «الراقية» - فبقيت معلقة بغير اجتهاد انتظاراً للاطلاع على ما عند الأمم الأخرى للاقتباس منه! إنما هى دعوى شاخت وجولدتسيهر وغيرهما يرددها «العالم الكبير» بأمانة، دون مراجعة ولا دليل، مدفوعا بذات الدوافع التى دفعت شاخت وجولدتسيهر وغيرهما من قبل للنيل من الإسلام والطعن فيه ...

* * *

ثم ينفى مزية أخرى فى المنهج الربانى هى المواءمة بين الواقع والمثال، والجمع بينهما فى التشريع والتوجيه لاقامة المجتمع الذى يهدف إليه الإسلام. فهناك حد أدنى مفروض (تحرسه الشريعة) يشتمل على المقومات الأساسية التى لا يقوم المجتمع السليم إلا بها، والهبوط عن هذا الحد الأدنى يعرض صاحبه للعقاب فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما جميعا، ما لم يرتدع عنه. وهناك حد أعلى مرغوب، تتطوع به النفوس التى تتربى على الإسلام، دون أن يفرض على الناس فرضا، لأن الله العليم الخبير يعلم أنه ليس فى وسع كل إنسان أن يقوم به، فيجعله استحبابا تقوم به القلة التى تطيقه، ويستفيد المجتمع من كلا الأمرين فى آن واحد، فيرتفع إلى أعلى مستوى يستطيع الوصول إليه دون إعنات، وقد وصل الجيل الأول من المسلمين فى ذلك إلى آفاق لم يعرفها التاريخ فى غير الإسلام.

ولكن مروبرجر يزعم أن القانون الأخلاقي لم يطبق بتمامه أبدا في الواقع الإسلامي!! يعني أنه ظل حبرا على ورق! (أتراه في دخيلة نفسه يدافع - بغير وعي - عن شعبه المختار الذي لم يطبق فيه القانون الأخلاقي أبدا لا في حياة نبيه موسى عليه السلام ولا بعده إلى هذه اللحظة؟ أو يدافع عن واقع الغرب المنحل الذي تتباعد فيه الشقة بين الواقع والمثال في السياسة الدولية خاصة؟!).

ثم يقول إن المجتمعات الإسلامية المعاصرة تركت التشريع الرباني جملة واستبدلت به نظما علمانية بحتة مجلوبة من الخارج، حين أدركت بعد الشقة بين الواقع والمثال!

يا عجبا! وهل كان هذا تصرفا ذاتيا للمسلمين، أم واقعا منحرفا فرضه الغرب فرضا حين احتلت قواته العالم الإسلامي وأجبرته على تغيير شريعته؟ ثم واقعا منحرفا استساغته الأجيال المستضعفة من المسلمين التي تربت في ظل الاحتلال وجهلت بدينها. فلما أفاقت من غفوتها، وحاولت الرجوع إلى دينها وشريعتها قام الغرب كله - بصليبيته وصهيونيته - يحارب العودة إلى الشريعة، ويسميها أصولية وإرهابا وخطرا على العالم «المتمدن»؟!

إلى هذا الحد تكون المغالطات على يد «العلماء» الذين يدفعهم «العلم» و«الموضوعية» إلى الطعن في الإسلام والمسلمين؟!

* * *

يمضي المؤلف في الفصل الرابع (الرجال والنساء والأسر) من صفحة (٩٨) إلى صفحة (١٣٤)، والفصل الخامس (الشخصية والقيم) من صفحة (١٣٥) إلى صفحة (١٥٦)، فيشارك المستشرقين الآخرين في رمي المسلمين بكل نقيصة، وتجريدهم من كل فضيلة، ولكنه والحق يقال يزيد عليهم (باعتباره عالما اجتماعيا لا مستشرقا في الأصل!) فينحو نحوا أعمق في هذا الشأن، فيقول إن كل الفضائل الظاهرية الموجودة بين المسلمين قد نبعت في أصلها من عيوب

ورذائل متأصلة فيهم!! وهو لا يكتم القارئ أن هذا أمر عجيب فى ذاته، أن تؤدى العيوب والرذائل المتأصلة إلى فضائل ظاهرية! ولكن ما حيلة الرجل فى هذا الشأن. وقد اتضح له الأمر من خلال «البحث العلمى الموضوعى» الذى لا دخل فيه للأهواء، ولا مدخل فيه للمشارب والنزعات؟! ايجامل الرجل فى القضايا التى يقررها العلم البحت! وكيف إذن يستحق لقبه فى عالم الدراسات الاستشراقية حين يوصف بأنه «العالم الكبير»؟![1]

ولم تكن هذه هى الطرفة الوحيدة التى تفرد بها العالم الكبير ...

ففى صفحة (١٠٥) يتحسر على الفتاة المسلمة التى لا تجد الحرية التى تتيح لها ممارسة الجنس قبل الزواج، مثل أختها الغربية التى نالت هذا «الحق» من زمن! ويبالغ فى تحسره (فى صفحة ١٠٧) فيتجاوز كل الأعراف والمقاييس، فيبدى أسفه على التفرقة بين الرجل والمرأة فى الإسلام، إذ يبيح الإسلام للمسلم الزواج بالكتابية بينما لا يجيز للمسلمة أن تتزوج بغير مسلم[2]، ثم إن الرجل يستطيع أن يتزوج بأكثر من واحدة، بينما لا يباح للمرأة المسلمة أن تتزوج إلا من رجل واحد !!!

هل رأيتم أعجب من هذه الطرفة؟! ففى أى عرف أو دين أو نظام جاهلى أو غير جاهلى يكون للمرأة أكثر من زوج فى وقت واحد، حتى يقال إن الإسلام قد ظلمها إذ حرمها من هذا الحق ؟!!

* * *

---

(١) من عجب أن صحيفة الأهرام نشرت فى صيف عام ١٩٦٧ الخبر التالى «يزور مصر فى هذه الأيام الكاتب الأمريكى الكبير «موربرجر» ويلتقى بصديقيه الحميمين: الشيخ أحمد حسن الباقورى، والشيخ حسن علوان شيخ مشايخ الطرق الصوفية!

(٢) المسلم الذى يتزوج كتابية يؤمن - بمقتضى إسلامه - بالأنبياء جميعا بما فيهم أنبياء الكتابية التى يتزوجها، ومن ثم لا يقع عليها ضرر عقدى من تزوجه إياها، ولا تتعرض للفتنة فى دينها. بينما المسلمة إذا تزوجت يهوديا أو نصرانيا فهو لا يؤمن برسولها ﷺ، وهى عرضة لأن تفتن فى دينها بتأثير هذا الزواج، ثم إن القوامة للرجل وهى لون من الولاية، ولا ولاية لغير المسلم على المسلم. وقد نزل القرآن: ﴿مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾ [المائدة: ٤٨]

فى نهاية الفصل الرابع (صفحة ١٣٤) يقرر أمراً له أهمية عظمى فى البحث، وسترد الإشارة إليه أكثر من مرة، حيث يقرر أن أشد عوامل التغيير الذى طرأ على المنطقة هو التغيير الذى طرأ على وضع المرأة من حيث التعليم والعمل فى خارج البيت، وأن هذا التغير سيحدث تغييرا دائما وعميقا فى المجتمع العربى.

هذه القضية ذات أهمية خاصة بالنسبة للمؤلف، وقد أعاد الإشارة إليها فى عدة مواضع كما ألمحنا آنفا، ويجب أن تكون ذات أهمية خاصة بالنسبة لنا كذلك، كما يجب أن ندرك مدى اهتمام الغرب الصليبى الصهيونى بإخراج المرأة المسلمة من بيتها، ونزع حجابها، ودفعها إلى الاختلاط بالرجل فى كل مجال.

إن هذا الأمر لا يأتى اعتباطا، إنما يأتى بتخطيط مدروس، يفصح عنه المؤلف الذى يربط ربطا صريحا بين ضعف الإسلام حيث ضعف فى المدينة، وبين خروج المرأة على النحو الذى أخرجت به من بيتها وتقاليدها ودينها وأخلاقها، ويعد هذا الأمر – من بين أمور أخرى – هو أشدها أثرا وأكثرها قدرة على إحداث التغيير الذى يتلهف الغرب على إحداثه.

وانظر إليه فى صفحة (٣٨٢) يقول فى معرض الإعجاب الشديد والتحمس الشديد للحكام العسكريين فى المنطقة: إن الحكم العسكرى قد شجع – فوق كل شئ – عملية تحرير المرأة من العزلة التى كانت تعانيها وذلك من خلال التعليم والعمل خارج البيت ... فلحساب من يتم هذا الأمر؟!

ونمر الآن مراً سريعا على واقعة ذات دلالة – قد نعود إليها مرة أخرى – إذ قال عبد الناصر – مؤسس الحكم العسكرى فى مصر – فى خطبة له (بالعامية الفصحى!!): « هيّه إسرائيل عايزة مننا إيه؟ ... إحنا حررنا المرأة!! » والعبارة لا تحتاج إلى تعليق!

ويقول المؤلف فى صفحة (٣٨٧): إن مصر لم تقرر بعد المساواة الكاملة

بين المرأة والرجل. ولكن نمو التعليم النسوى سيؤدى – ولو فى صورة بطيئة – إلى اتجاه يستحيل الرجوع عنه أو تغيير اتجاهه، يفضى إلى المساواة الكاملة فى داخل البيت وخارجه.

* * *

يزعم فى أكثر من مكان فى الفصل الخامس أن العرف البدوى قد اخترق الإسلام، وأن الإسلام قد اشتمل على كثير من أعراف العرب قبل الإسلام لأنه لم يستطع مقاومتها، ففرضت نفسها عليه (صفحة ١٦٢).

وهنا أكثر من مغالطة استشراقية. فقد أقر الإسلام فعلا بعض أعراف الجاهلية العربية إما لأنها من بقايا دين إبراهيم عليه السلام، فهى ربانية الأصل، وإما لأنها سليمة فى ذاتها، أى أنها لا تتعارض مع المنهج الربانى. ولم يكن قصد الإسلام التغيير لمجرد التغيير! إنما يغير الفاسد لإصلاحه، فإذا لم يكن فاسدا يبقى بحكم سلامته التى يدخل بها فى المنهج الربانى أو يلتقى بها معه. ولكن الخبيث يريد أن يقول إن الإسلام كله نظام بدوى، هو نتاج البيئة البدوية، وكان صالحا لها، لأنه منها وهى منه! ولكنه لم يعد صالحا اليوم فى العالم «المتطور» الذى نبذ البداوة وتقدم وتحضر! وهى فكرة يلح عليها المستشرقون غير مبالين بوقائع التاريخ التى تكذبها. فقد غيرّ الإسلام أعرافا كانت متأصلة فى الجاهلية، كوأد البنات، وإباحة زواج الرجل من زوجات أبيه (غير أمه)؛ ووراثة النساء من ضمن الأشياء الموروثة وعدم توريث النساء من التركة، وإباحة الخمر وإباحة الزنا وتحليل الربا، وغارات السلب والنهب، والعصبية للقبيلة وما يصاحبها من الثارات الدامية، وإباحة التبنى، واعتبار المتبنى كالولد الحقيقى بحيث يحرم على الرجل أن يتزوج من مطلقة متبناه ... إلى آخر ما ألغاه الإسلام من أعراف الجاهلية الفاسدة. فإذا أبقى من أعراف الجاهلية ما أبقى فلم يكن ذلك عجزا عن التغيير، إنما كان لسلامة تلك الأعراف وعدم حاجتها إلى التغيير.

بل إنه مما يلفت النظر أن كثيرا من الأعراف التى أبقاها الإسلام لسلامة أصلها، قد صحح الإسلام وجهتها، لتعود ربانية كما يريدها الله، ويزيل عنها ما كانت الجاهلية قد أفسدته من توجهاتها. فالكرم فضيلة يحبها الله، وهى أصيلة فى البيئة العربية. ولكن الجاهلية كانت قد أفسدت وجهتها فجعلتها «رئاء الناس» كما وصفها القرآن الكريم، فالرجل يقرى الأضياف ويبالغ فى إكرامهم «لتتحدث بذكره الركبان» فإذا لم تكن هناك ركبان تتحدث فلا كرم عندئذ! فندد القرآن بهذا التوجه الفاسد، وجعل الإنفاق «فى سبيل الله» فجرده من الرياء، ومن المظاهر الفاسدة المفسدة، وجعله للمستحقين له بالفعل.

والشجاعة فضيلة يحبها الله، وهى أصيلة فى البيئة العربية، ولكن الجاهلية كانت قد أفسدت وجهتها فجعلتها حمية جاهلية يقول عنها شاعرهم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم إلى القتال على ما قال برهانا

فلا يسألون أخاهم – ولا يسألون أنفسهم – أفى حق كان القتال أم فى باطل؟ أفى نصرة مظلوم أم فى ثأر يختلط فيه الحق والباطل، أم فى غارة للفتك والغلبة بغير حق. فندد القرآن بحمية الجاهلية هذه، وجعل القتال «فى سبيل الله» إحقاقا للحق، ولتكون كلمة الله هى العليا.

وأبقى الإسلام رابطة الأسرة، وقواها، وأحكم روابطها ماديا ومعنويا وبكل وسيلة، وقد كانت قوية فى البيئة العربية، ولكن الجاهلية كانت قد أفسدت وجهتها، فجعلتها عصبية مقيتة، فجاء الإسلام فردها إلى أصلها الربانى، وقال عن انحرافاتها الجاهلية: ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ [التوبة: ٢٤] فجعل الأصل فى روابط الأسرة – قبل – رابطة الدم

- الرباط في الله، وفي العقيدة، وفي سبيل الله، بل أمر بفصم رابطة الدم إذا تعارضت مع العقيدة.

وهكذا وهكذا في كل امر من أمور الجاهلية التي ابقاها الإسلام، فقد عدّل وجهته ليتمشى مع مبادئ الإسلام وقيمه ومفاهيمه، فصار خلقا آخر غير ما كان عليه في الجاهلية. فما أبعد ما يقوله مرروبرجر وغيره عن الواقع التاريخي لذي احدثه الإسلام.

ثم إن ما « تطور » من الأمور بفعل العوامل الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو المادية، فإن الفقه الإسلامي قد أباح منه ما هو مباح في أصله الشرعي، مما لا يتعارض مع مقاصد الشريعة، ولا يحل حراما ولا يحرم حلالا، وتلك هي اداة التجديد الدائم في هذه الشريعة مع الثبات فيما أوجب الله تثبيته، وتلك أيضا هي مزية هذه الشريعة التي تعطيها المرونة مع الثبات، والتي تجعلها - دائما - صالحة لكل زمان ومكان، لا تقف في طريق النمو السوى للبشرية، ولا يند عنها في الوقت ذاته جديد منحرف يفسد الحياة.

أما ما يرتكبه المسلمون اليوم من المخالفات والانحرافات تفلتًا منهم، أو خضوعا لضغوط الغرب عليهم وهم في حالة الاستضعاف الراهنة، فليس حجة على الإسلام، وسيظل في عرف الإسلام خطأ أو خطيئة ولو بقى الناس يمارسونه ألف عام، وسيحاسبون عليه أمام الله يوم القيامة، ولا يقبل منهم أن يقولوا إنه أمر أوجبه « التطور » أو قضت به « العولمة » أو صيرورة العالم كله « قرية واحدة »، فلا حجية لشئ من ذلك كله عند الله، إنما الحجية لشريعة الله، الذى كان يعلم وهو يعرض هذه الشريعة أن كل ذلك سيحدث: التطور والعولمة والقرية الواحدة ... إلخ، ولكنه لم يقل لعباده إذا حدث شئ من ذلك فاتركوا شريعتي وسيروا كغثاء السيل مع التيار !! إنما قال سبحانه لرسوله ﷺ والأمة مقصودة من ورائه: ﴿ **فاستمسك بالذي أُوحيَ إليك إنَّكَ علىٰ صراطٍ مُستقيم** ﴾ [الزخرف: ٤٣] وقال تعالى: ﴿ **فاستقمْ كمَا أُمرتَ ومَن تابَ معك ولا تَطغَوا إنه بما تعملُونَ بَصِيرٌ ۞ ولا**

تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ [هود: ١١٢ - ١١٣]

* * *

ثم يخلط المؤلف (فى صفحة ١٦٣) عن عمد أو عن جهل بين قول الفقهاء إن المخالفة التى تقع من الإنسان لشرع الله لا تخرجه من الإسلام إلا إذا كان جاحدا لشرع الله، أو منكرا معلوما من الدين بالضرورة، وبين إباحة المخالفة والرضى بها! ويعتبر هذا تحايلا من الفقهاء للإبقاء على ثبات الشريعة نظريا مع علمهم بأنها تخالف فى عالم الواقع، وكان الواجب - فيما يرى هو - أن يكونوا صرحاء مع الواقع فيغيروا الشريعة لتتمشى مع الواقع المتغير، ولا يصروا على الزعم بثباتها مع أن الواقع أنها تخالف فى التطبيق!

أهى مجرد جهالة؟ أم تحريض خبيث على نبذ الشريعة، وإعلان عدم صلاحيتها، واللجوء إلى الغرب لاستمداد منهج الحياة من عنده؟ أم مزيج من هذا وذاك؟!

إن الفقهاء قالوا إن كفر العمل لا يخرج من الملة ما لم يكن مرتكبه جاحدا، واستثنوا مع ذلك أعمالا بعينها لدلالتها بذاتها على الكفر كالسجود إلى صنم أو سب الرسول ﷺ أو إهانة المصحف أو التشريع (أى التحليل والتحريم والمنع والإباحة) بغير ما أنزل الله. وتلك قضية عقدية تتعلق بحكم من تقع منه المخالفة: هل هو كافر مخلد فى النار أم غير مخلد، ولكنهم لم يقولوا قط إن هذه المخالفات جائزة أو مباحة أو مستحبة أو مرضى عنها أو مسكوت عنها. إنما قالوا فقط إنها معاص لا يخلد صاحبها فى النار ما دام غير مستحل لها ... فانظر إلى أين ذهب بها «العالم» الكبير!

وماذا فعل الغرب بحكمته - بل قل بحماقته - حين غيّر التشريع ليتمشى مع الواقع الهابط فى قضية الفاحشة وقضية الشذوذ وقضية المخدرات، وغيرها من القضايا ... حين قال «الحكماء»: ما جدوى التحريم الموجود فى التشريع إذا كان

الواقع التطبيقى مخالفاً له، فلنكن «واقعيين» ولنعترف بالأمر الواقع! هل أدى ذلك إلى علاج الانحراف أم إلى مزيد من الانحراف حين صار الأمر مباحا بحكم القانون؟ وهل ارتقت البشرية بهذه «الحكمة» الحمقاء أم زادت هبوطا وانتكاسا إلى أسفل؟ وهل هذا الذى يراد للإسلام والمسلمين لكى «يتطوروا» و«يتحضروا»؟

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]

* * *

فى صفحة (١٦٣) يقول المؤلف إن الحكم الإسلامى فى الفترة الأولى كان ثيوقراطيا حقًا، لا بمعنى أن الله هو الذى يحكم، إنما بمعنى أن شريعة الله هى الحاكمة.

والمعنى الأول لم يدعِّه أحد حتى يقوم هو بنفيه! فحين يقولون هم فى تأريخهم لأوربا إن الحكم كان ثيوقراطيا فى العصور الوسطى فهل يقصدون أن الله هو الذى كان يحكم؟!

وأما المعنى الثانى، وهو وصف الحكم الإسلامى بأنه «ثيوقراطى» لأنه يحكَم شريعة الله فغير صحيح بالنسبة للحكم الإسلامى. فالحكومة الثيوقراطية هى حكومة «رجال الدين» وليست حكومة الشريعة الربانية، فإن أوربا لم تحكم قط بالشريعة الربانية التى أنزلت فى التوراة والإنجيل! إنما كان القانون الرومانى هو الحاكم فيها، ولكنها خضعت فى الوقت ذاته لأهواء البابا يحل ويحرم لهم بما تشاء أهواؤه، فأحل لهم الخمر والخنزير وهما محرمان فى شرع الله، وحرَّم عليهم الختان وهو مأمور به فى شرع الله، ثم أطاعوه فقال الله عنهم: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ [التوبة: ٣١] ولما جاء عدى بن حاتم ليسلم بين يدى رسول الله ﷺ تلا الرسول ﷺ هذه الآية فقال عدى: يا رسول الله ما عبدوهم! فقال عليه الصلاة والسلام: «ألم يحلوا لهم الحرام ويحرموا عليهم احلال فأطاعوهم؟ فذلك عبادتهم إياهم»[1].

---

(١) رواه الترمذى.

والإسلام ليس فيه رجال دين، وبالتالي فليس في تاريخ الإسلام حكومة تيوقراطية بأي معنى من المعاني، إنما فيه حكم بالشريعة يحكم بها ولي الأمر، ويحكم بها القضاة في المحاكم، ويتحاكم إليها الجميع ما داموا مسلمين. ثم يقصد مروبرجر (وغيره ممن يزعمون زعمه) أن يغفروا الناس من حكم الشريعة إذ ينسبونه إلى الحكومة الثيوقراطية السيئة السمعة التي كانت تحكم أوربا في العصور الوسطى!

* * *

في صفحة (٢٣٣) يقول: إن الإسلام كان مقصودا به العرب!!

فمن هو يا ترى صاحب القصد؟!

فأما الله سبحانه وتعالى، منزل هذا الدين، فقد قال في سورة مكية من أوائل ما نزل في مكة، والمسلمون في أشد حالات استضعافهم: ﴿**إن هو إلا ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم**﴾ [التكوير: ٢٧ - ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿**وما هو إلا ذكر للعالمين**﴾ [القلم: ٥٢] وقال جل جلاله: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

وأما الرسول ﷺ فيقول: «ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل به الكفر»(١).

فمن هو يا ترى صاحب القصد الذي يتحدث عنه مروبرجر حديث الواثق الخبير؟!

أما كون الإسلام انطلق من الجزيرة العربية فهذا صحيح، ولا بد لكل دعوة من قاعدة تنطلق منها. ومهما كانت عالميتها وانتشارها، فإنها تبدأ في القاعدة أولا، وحين تستقر فيها وتتمكن تأخذ في الانتشار انطلاقا منها إلى الأماكن الأخرى، وما وجدت دعوة في التاريخ كله انتشرت في الآفاق كلها في وقت

---

(١) رواه أحمد.

واحد دون أن تنطلق من قاعدة معينة، حتى في عالم اليوم الذي انتشرت فيه وسائل الاتصال انتشارا لا مثيل له، وأصبح العالم – فيما يزعمون – كالقرية الواحدة . . .

والقاعدة التي اختارها الله سبحانه وتعالى لانطلاق هذه الدعوة كانت هي الجزيرة العربية، لأمور فيها يعلمها الله سبحانه وتعالى، ويعلم أنها أصلح مكان لها ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ولكن هذا لا يعني أن هذا الدين قصد به العرب وحدهم، أو أنه دين عربي بمعنى أنه نابع من البيئة العربية ومفصل على حجمها. فقد جاء هذا الدين بما لم يكن موجودا في البيئة العربية ولا في أية بيئة في الأرض كلها يومئذ. فقد جاء والعرب لا يجتمعون في «أمة» على الرغم من وحدة اللغة ووحدة الأرض ووحدة الأعراف ووحدة المعتقدات، لأنهم قبائل متناحرة متنافسة متنابذة، فألف بين قلوبهم فتكونت منهم لأول مرة في تاريخهم «أمة»، بل أخرج الله من هذه القبائل المتناحرة لا مجرد أمة من الأمم، بل ﴿ **خير أُمّة أُخْرِجَتْ للنّاس** ﴾ في التاريخ كله، بشهادة مخرجها إلى الوجود سبحانه. وكان الشرك هو دين الجزيرة العربية، وكان داخلا في الديانات الأخرى سواء ما كان منها من صناعة البشر أو ذا أصل سماوي فحرّف على يد البشر، فجاء الإسلام بعقيدة صافية التوحيد لا يشوبها شائبة من شرك. وكان الحكام في كل الأرض ذوي قداسة تقدم لهم شعائر العبادة كما كانت القبيلة ذاتها وثنا معبودا في الجزيرة العربية يقول القائل فيها (١):

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد!

فجاء الإسلام فنزع القداسة عن كل أحد إلا الله وحده سبحانه وتعالى، وجعل الاتباع في الرشد وحده وحرّم الاتباع في الغيّ. وكانت المرأة في الجزيرة العربية كما مهملا وشيئا من الأشياء فرفعها الإسلام إلى مقام «الإنسان» وقال

---

(١) هو دريد بن الصمة.

سبحانه : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾ [آل عمران . ١٩٥] وقال : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾ [النساء . ١]

وجاء الإسلام والرقيق فى الأرض كلها « شئ » يتصرف فيه مالكه بما يشاء، فرد الإسلام له إنسانيته المفقودة وجفف منابع الرق كلها إلا منبعا واحدا هو رق الحرب على العقيدة، وحتى هذا فتح له باب التحرر بالعتق والمكاتبة، سابقا بذلك نظم الأرض كلها باثنى عشر قرنا كاملة!

وغير ذلك كثير يشهد بأن الإسلام لم يكن دينا عربيا بمعنى أنه نابع من العرب ومفصل عليهم كما يزعم برجر وغيره من المستشرقين، إنما هو دين للبشرية كلها، نزل بلسان القاعدة التى اختارها الله لتكون منطلقا إلى كل الأرض، وتحققت عالميته فى واقع التاريخ، فبلغ معتنقوه من غير العرب أضعاف الشعب العربى كله من المشرق إلى المغرب!

* * *

فى صفحة (٢٦٦) يقول إن توحيد الدين والسياسة فى الإسلام أدى إلى « خلط » الالتزامات السياسية والأخلاقية! (انظر كلمة « خلط ») ومنع من الوصول إلى « النضج » الذى وصل إليه الغرب حين فصل الالتزامات المدنية والفكر السياسى عن الدين!! كأن هذا هو الأصل الذى يجب أن تلتزمه كل النظم!

وإذا كانت ظروف معينة فى أوربا، نشأت من طغيان الكنيسة ورجال الدين، كان فى قمتها حرق العلماء أحياء بسبب مناداتهم بنظريات علمية تخالف معتقدات الكنيسة، قد أدت إلى إبعاد الدين عن السياسة، أفيكون هذا أصلا يجب أن يتبع ولو لم توجد ذات الظروف ؟!

أى عوج – واستبداد فكرى فى الوقت ذاته – يسيطر على العقل الأوربى، ويريد فرضه بالقوة على الأرض كلها: غرورا وعجرفة واستكبارًا فى الأرض،

يخيّل للغرب أنه هو العالم، وما سواه يجب أن يكون تبعا له، امتدادًا لروح الإمبراطورية الرومانية التى ورثتها أوربا، والتى كانت ترى نفسها هى «الناس»، وبقية الخلق عبيد!

على أن دعوة الغرب للمسلمين بفصل الدين عن السياسة، واتخاذ العلمانية دينا وديدنا، لا تنشأ من ذلك الغرور وحده، وهو ذاته أمر مرذول، إنما ينشأ من حسابات أخرى حملها الاستعمار فى فكره وما زال يحملها، هى إبعاد فكرة «الجهاد» عن أرواح المسلمين وعقولهم كما يصرح برجر وغيره من كتاب الغرب، بالإضافة إلى الرغبة فى نشر الفساد الخلقى فى المجتمع الإسلامى حين تزال «الحدود» التى تحرّم الفواحش، فيتسنى للغرب عندئذ أن يحكم قبضته على العالم الإسلامى المشغول بشهواته، المبتعد عن روح الجهاد، وهو مطمئن من ردة فعل تبعد قبضته الخانقة عن المسلمين. وتمنعه من إحكام القبضة عليهم.

أما انفصال سياسة الحكم عن مقتضيات الدين والشريعة فى واقع المسلمين، وخاصة فى القرون الأخيرة فهو حقيقة، وإن لم يكن خطا دائما كما يحرص المستشرقون على تصويره. ولكنه لا يبرر ما يدعون المسلمين إليه من فصل الدين عن السياسة واتخاذ العلمانية. إنما العلاج هو إصلاح الخطأ الذى وقع فى حياة المسلمين حين ابتعدت سياسة الحكم عن الهدى الربانى، وجرى الاستبداد فى شئون الرعية بغير ما يعرض الإسلام. أما فصل الدين عن السياسة فقد أدى فى واقع المسلمين فى الفترة الأخيرةإلى ألوان من العسف السياسى لم يعرف لها مثيل من قبل فى أشد عصور الاستبداد الذى وقع من حكام الجور المسلمين!!

* * *

إلى هنا نكون قد انتهينا – تقريبا – من عرض أفكار «المستشرق» مروبرجر عن الإسلام، سواء منها ما اكتفى فيه بترديد سخافات المستشرقين الآخرين، أو ما ابتدعه من سخافات خاصة به لم يسبقه بها أحد من قبله...

ولكن تبقى بعد ذلك «الخصوصية» التى يختص بها المؤلف والكتاب! والتى تشم رائحتها منذ الصفحة الأولى التى ذكر فيها اختياره لهذه المنطقة بذاتها للدراسة، والتى حددها بأنها من مصر إلى العراق، أى – باللغة الأخرى – من النيل إلى الفرات!

إن المؤلف رجل سياسة، وإن تلفع «بالبحث العلمى» سواء علم الاجتماع أو علم الاستشراق! وهو لم يخرج هذه الدراسة لمجرد أن تكون بحثا علميا فى شئون منطقة من مناطق الأرض، إنما هى دراسة مختارة – كما أشرنا آنفا – للمنطقة التى تحلم إسرائيل أن تنشئ فيها إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، تمهيدا لإقامة الحكومة العالمية التى تحكم العالم من القدس.

وهو فى الدراسة لا يكتفى بالدراسة! إنما هو يوجه إلى أوضاع معينة فى المنطقة يريد من الناس أن يتبعوها، وينتقد أوضاعا معينه لكى يتخلى الناس عنها، ويمجد أوضاعا معينة لأنها تخدم أهدافه، أهداف الصليبية الصهيونية المشتركة، التى أنشأت إسرائيل بادئ ذى بدء، وظلت ترعاها وهى تتوسع وتلتهم كل يوم جزءا من العالم العربى الإسلامى.

وأبرز ما يبدو ذلك فى تمجيد الأنظمة العسكرية فى المنطقة، وتبرير كل ما تقوم به من أعمال، وخاصة ضرب الحركات الإسلامية – الذى يصفه هو بأنه «ضرب بلا رحمة» – وتحرير المرأة على الطريقة التى حررت بها من دينها وأخلاقها وتقاليدها، وكبت الحريات السياسية، والحكم بقبضة من حديد.

ولعل أشد ما يكشف «اللعبة السياسية» فى الكتاب ادعاؤه أن الأنظمة العسكرية فى المنطقة قد نبتت نباتا تلقائيا من رغبة شعوب المنطقة فى التحرر من سيطرة الغرب، ومن تشبع المنطقة بالشعور القومى، المتمثل فى الرغبة فى الاستقلال، وحيازة القوة، والسعى إلى «التقدم» و«الحداثة».

أما أن هذه المشاعر كانت موجودة عند شعوب المنطقة، ومشبوبة فى

أفئدتها، فنعم! وأما أن الأنظمة العسكرية قد نشأت تلقائيا لتجسيد هذه الرغبة دون تدخل خارجي فأمر أقل ما يقال فيه إنه قول يعوزه الدليل!

يقول رجل المخابرات الأمريكية «مايلز كوبلاند» مؤلف كتاب «لعبة الأمم»: «إن مصر كانت في بداية الخمسينيات معرضة لإحدى ثورتين: إما ثورة شيوعية وإما ثورة إسلامية، والثورة الإسلامية أخطر علينا بكثير من الثورة الشيوعية. لذلك تدخلنا تدخلا حاسما لنقطع الطريق على كلتا الثورتين»!!

فما رأى مروبرجر في هذا الكلام الصريح، الناطق بعكس ما يزعم في كتابه من تلقائية الحركات العسكرية ونشوئها نشأة ذاتية من ظروف المنطقة ؟!

بل ما رأيه في كلامه هو في كتابه من أن هناك قوى كانت ترقب المنطقة وتتحفز للدخول إليها بعد طرد النفوذ البريطاني والفرنسي الذي كان مستوطنا فيها، وأن في مقدمة هذه القوى كانت أمريكا [1]؟! (انظر صفحة ٢٩٦ وما بعدها).

أيهما نصدق؟ مروبرجر الذي يقول إن أمريكا كانت تتطلع إلى المنطقة وأنها ساعدت على التحرر من النفوذ البريطاني والفرنسي، وقدمت سياسة للإصلاح الزراعي لإصلاح الأحوال في المنطقة، أم مرو برجر الذي يقول إن الحركة كانت تلقائية، وكانت تجسيداً لرغبة الشعب في الاستقلال والقوة والتقدم؟

وما بال مرو برجر – اليهودي – يتحمس كل هذه الحماسة للأنظمة العسكرية (التي يسمى القائمين بها «النخبة العسكرية») وهي تضرب الحركات الإسلامية التي لا تخشى إسرائيل شيئا كخشيتها إياها، ولا ترغب شيئا كرغبتها قمعها والقضاء عليها؟

وما بال مرو برجر – اليهودي – يتحمس كل هذه الحماسة للأنظمة

---

(١) ذكر معها روسيا، وسنتكلم عن دور روسيا بعد قليل.

العسكرية وهى « تحرر » المرأة، ذلك التحرير الذى يقول عنه إنه أفعل وسائل التأثير فى المجتمع، المفضى فى النهاية إلى إضعاف الإسلام وتحجيمه فى ركن منعزل لا يحكم الحياة؟

يقول مرو برجر إن الديمقراطية كانت قد فشلت فى المنطقة، لقلة نسبة المتعلمين، ولأن الغرب المسيطر أى بريطانيا وفرنسا، لم تكونا ترغبان فى تنمية الديمقراطية الحقيقية فى المنطقة، إنما كانتا ترغبان فى استخدامها وسيلة لتثبيت نفوذهما، وكانتا تعتمدان فى ذلك على طبقة كبار الملاك والإقطاعيين، التى تسيطر على البرلمانات ولعبة الانتخابات ...

وهذا كله حق ... ولكنه حق يراد به باطل ...

فإذا كانت الديمقراطية قد فشلت للأسباب التي يذكرها (بصرف النظر عن رأينا الخاص فى الديمقراطية) فهل العلاج هو القضاء عليها، وكبتها، وقمعها، أم العلاج هو مزيد من التربية للأمة لكى تتعود على إعمال الرأى، وتحمل المسئولية، والمشاركة الفعلية فى إدارة الأمور ؟!

فأى شئ فعلت الأنظمة العسكرية فى هذا الشأن؟!

يعتذر لها! يعتذر لها بأنها كان لا بد أن تفعل ذلك، لكى تحدث التغيير الاجتماعى الذى يؤدى – بعد عمر طويل! – إلى تربية الأمة لكى تمارس الديمقراطية!!

أفرأيت أبرد من هذا الدفاع، الذى ينكشف من ورائه كل ما يريد المؤلف أن يخفيه؟!

* * *

أما دور روسيا فقد يكون خافيا على كثيرين، من ناحية سماح أمريكا – فى مناطق نفوذها التى استولت عليها بعد طرد النفوذ البريطانى والفرنسى – سماحها لها بالعمل فى مناطق نفوذها، وخاصة فى وسائل الإعلام، وتجنيد

الشيوعيين من أبناء البلاد ليعملوا فى الصحافة والإذاعة، وإتاحة الفرصة لهم على اتساعها للدعوة إلى المبادئ الشيوعية ...

ولا يتسع المقام هنا لشرح اللعبة من جميع أبعادها. ولكن لعله يجزئنا أن نقول إن أمريكا قد سمحت للنفوذ الشيوعى أن يتوغل فى مناطق نفوذها فى مجال معين، وهو محاربة الإسلام والدعوة الإسلامية! فقد كانت الشيوعية تملك يومئذ من وسائل حرب الإسلام أكثر مما يملك الغرب. فالغرب لا يملك فى هذا المجال إلا نشر الفساد الخلقى. أما الشيوعية فقد كانت تزعم أنها عقيدة! وأنها العقيدة الوحيدة التى تملك تخليص العالم كله من أمراضه وأوجاعه ودواعى الخلل فيه! وكانت أمريكا ترقب الموقف بدقة، فهى تسمح للشيوعيين أن يعملوا – بجد – فى هذا المجال، كما تورط روسيا فى تقديم مساعدات للمنطقة بدلا من أن تتحملها هى وحدها، ولكن بشرط ألا يصدّق الشيوعيون أنفسهم فيقوموا بانقلاب شيوعى حقيقى فى أى منطقة من مناطق النفوذ الأمريكى! وتم ذلك بالفعل فى المنطقة على اتساعها فيما عدا حادثتين اثنتين أفلتتا من الرقابة الشديدة، هما الانقلاب الشيوعى فى أندونيسيا سنة ١٩٦٥م، والانقلاب الشيوعى السودانى سنة ١٩٧٠، ولقى الانقلابان جزاءهما فى الحال! فحدثت مجزرة فى أندونسيا قتل فيها ألوف الشيوعيين، ولم يعش الانقلاب السودانى أكثر من ثلاثة أيام ضرب فى أثنائها من قبل كل الأنظمة «الوطنية» فى المنطقة!!

* * *

ما علينا من هذا ...

يتساءل المؤلف قرب نهاية الكتاب عن هاجس يعمل فى صدره ...

إلى أى مدى تنجح الحركات المفروضة من أعلى؟!

ويبدى المؤلف تخوفه (فى صفحة ٣٨٦) من أن التجربة العملية فى روسيا وتركيا أثبتت أنه لا يمكن للحركات المفروضة من أعلى، أى بالقوة الجبرية أن

تقضى على كل ما تزيد القضاء عليه من أعراف وتقاليد وتنظيمات عميقة الجذور فى التربة. ويقول إن الحكم العسكرى فى روسيا وتركيا قد اضطر إلى التراجع فى مجال الدين، فلم يستطع أن يحتث جذوره، واضطر إلى الاعتراف بالأمر الواقع!

ولكنه يعود فيعزى نفسه بأنه على المدى الطويل سيحدث التغيير الاجتماعى الذى يجعل العودة إلى الدين وعودة المرأة إلى الحجاب أمرا مستحيل الوقوع!

وأظن المؤلف قد عاش حتى رأى أحلامه تبوء بفشل ذريع. إذ هب العالم الصليبى الصهيونى كله يحارب الحركات الإسلامية بضراوة لم يسبق لها مثيل من قبل، ولو كانت حركات ميتة – كما تمنى لها المؤلف – ما كانت تحتاج إلى هذا التجمع كله، وهذا الجهد كله، لمحاولة القضاء عليها، وتجفيف منابعها!